الطريد في تجربة الشعر الحديث

بقلم أحمد اسكندر أحمد

الطريد «١» : انسان ملقى ، عالمه اضواء ، وايامه ذكرى عنيفة ، اصداء انسحاقات الجيل في مخاض لم يتضح بعد .. فراح يتسكع في نفوسنا كصيغة حضارية شرّش فيها واقعنا المرفوض .. وكانت انعكاسات الشعرية حادة في نغم الشعر الحديث ، متخذة شكل مأساة ، وعنفا دراميا جعل من الجيل أناسا عجافا يهتزون لدى تحدثهم .. أناسا فقدوا اتزانهم ..

لقد فر الواعون .. الشعور الحاد ، ورفض الواقع أديا الى موقف ضبابي مضيع ، فجاء الطريد انسانا موزع النفس ، له ذوات عدة، واتجاهات متباينة لا يتلمس مسالكها الا وهما يوحي له بالخيبة .. انه انسان بلا وجه ، انسان بعيون باطنية مشاكسة فلا يستقر على رأي .. هذه مأساة الجيل : الحيرة بين قيود الماضي ، وانطلاقات الحاضر. وما دام حاضرنا مخاضا ، والماضي موضوعا في ثلاجة كان لابد من الحركة .. لكن الحلبة صغيرة ، والمتسابقون يدورون حتى « الدوخة » .. انهم محور صراع هم ضحيته ..

أفاق الجيل من خدر القرون الماضية على ضربات نحاسية ملتفتا حواليه .. ان ضبابية الماضي لم تستطع ان تحجب عنه مستنقع الحاضر. وأمعن النظر فيما يحيط به فماذا وجد ؟ أخلاق العمامة تطرح ارضا، والذيل بدء خلق جديد ، شهود عصر محتضر ، والشباب أجهضهم مزيج حضارتين لم يتجانس بعد ، مزيج يود من العجوز مضاجعة الشاب .. عجوز متصابية مبلغ همها أن تستعيد في لحظة ذكرى سالف ايامها، وباب فوار الدم يريدها ينابيع مياه كبريتية .. كلاهما يود من الاخر شيئا مفقودا ..

قلة أولئك الذين تخطوا العتمة ، في حين بقي الاخرون في دوامة تلفتون حواليهم مشدوهين .. التوابيت الحجرية ، والقبور الدكناء تتوسط حديقة الحب ، حيث كان يجب أن تنمو الزهور .. ولعل أحد سكين تتسلى بقلب الانسان .. سكين الذكر وخيبة الامل .. كان صراخ الطريد قصيدة رمزية لشاعر انجليزي :

ذهبت الى حديقة الحب
ورأيت ما لم أشاهده من قبل قط :
كنيسة صغيرة مبنية في الوسط ،
حيث اعتدت أن ألهو فوق العشب
أبواب هذه الكنيسة كانت مغلقة
وعلى الابواب مكتوب « ممنوع الدخول »
وهكذا استدرت الى حديقة الحب
التي تحمل كثيرا من الزهور الجميلة
لكنني رأيتها ملأى بالقبور ،
والتوابيت الحجرية حيث يجب ان تكون الورود
ورهبان في حلل سوداء يتجولون
ويلفون بالاشواك أفراحي وآمالي .. «٢» .

لو سئل الطريد عن وجهته ، والمكان الذي جاء منه لما استطاع الجواب ، انه سديمي النزعات ، يعيش في رعب وجودي مع نفسه،وامانيه صوت هندية تنهشه الوديان ..

لقد ساعدت جميع الظروف على خلق شعور التفاهة عنده ..انسان بلا امكانيات ، ولحظة الادراك أقسى مما يستطيع احتماله .. وقد أدى به هذا الى اليأس . فيجيب ببساطة عندما يسأل عن تجواله :

وأنا أسير ..
لا درب لي ، لا سقف يفرش ظله حولي :
وكابوس الهجير

رقطاء تبلعني ، تمزقني ، وتنفثني على سأم الرصيف «٣».

لماذا يجرجر أثقال خيبته ؟ الجواب : لانه انتهى الى الاعتقاد بلا جدوى وجوده .. وجوده مضيع في عالم خواء ، وكان فرضا أن يفقد حريته مع فقدان الشعور بامكانياته .. فشعور الذات بامكانياتها هو ما يسمى بالحرية عند « يسبرز » :

أنا فأر موجع يا أصدقاء
ملء حجري وحشة ، حقد صديدي وذكرى . «٤»

انه أنموذج الرفضي العربي الذي لم يتلمس طريقه بعد .. انسان ريفي مغلوب على أمره ، ومأساته أقدار خارجية تسحق فيه النسغ البدائي ، فاذا به مع المجرى مهشم القلب ، زين له البهرج فضلّ .. قروي كان يعيش في سعادة ، حرا في فلواته .. لكنه لم يستطع مقاومة الاغراء ، والمدينة أفواه شهية .. كوم من التمر لانسان البادية فانساق مع الدعوة التي سماها بومة :

وغزتنا من وراء الغيم ، من خلف الافق
بومة تنعي علينا ان نعيش ،
في البراري كالوحوش «٥».

حتى اذا ما تكشف امامه عالم الزيف عن تنين رهيب صرخ بما تبقى لديه من أصالة عميقة الجذور :

علي كنعان

آه !! أنفاسي يا رب .. أغث هذا الشقي.

ان للظروف القاسية التي تؤطره مكان الصدارة في تفكيره ، فلم يجد الى التحرر منها سبيلا .. انه انسان في الشباك ، والعقائدية حلم لن يصل اليه الا في مرحلة متأخرة يتصبى فيها النضال .. حاول ان يفر فحقد على الوجود ، وكان الحقد الوجه البدائي لرفضه هذا الواقع في محاولة التعبير عن مأسيه .. فهل يرضي الحقد نوازعه .؟ وهل يجديه شيئا .؟

شعري دخان لم تزل ناره لاهثة زرقاء في أضلعي
نذرته للحقد غنيته على مهب الفتن الاربع

«١» دراسة حول الديوان المخطوط لعلي كنعان « أنسام الواحة الضائعة » .

«٢» W. BLAKE : Poems P. 162

«٣» قصيدة « الشبح »

«٤» الفأر والغراب .

«٥» أنسام البادية

فالحقد ذئب طيب جـائـع اطعمته نفسي ولم يشبع « ٦ »

لم يجده الحقد .. فراح يتطلع الى شمعيات طريقه ، مشعلا سراجا خافت الضوء في سراديب نفسه ..

انـه تافه !! هكذا انتهى الى الاعتقاد ، غير انـه سيتخطى هـذه المرحلة .. لا بد له من قفزة .. في احدى المرات حاولت ضفدعة ان تفاخر الثور ، وأن تريه أنه ليس أشد منها كبرا وعظمة فنفخت جلدهـا ومـا فتئت تزيـده اتساعـا حتى قضت ..

الضفدعة طريد تافه يحب أن يتعلمق ، أن يدعي ما ليس فيــه ، والحزن نغم جنائزي يسير على توقيعاته فكان أنينه التفجعي :

اذكري أسطورة الضفدع والثور ، اذكريني
ما أنا الا بقايا ضفدعة !
طالما حاولت جهدي ..
في ذرى عالمك الوحش الالد
أن أرائي ،
أدعي ما ليس لي
أنفخ جلدي .! «٧»

الصفة المميزة للطريد أنه يعي ما يفعله .. انه على دراية تامة بمـا يجري حوله .. من أين جاء.؟ يستطيع ان يقول :

من أين ؟ لا ادري ، ولا اين المصير !
طفل بدون اسم ، بلا حس ، بلا وجه يسير .

الطريد يسير .. هل لنا ان نتساءل عما يريد .؟ نستبق الجـواب مستقرئين خط سيره فنجيب : انه لا يدري ويدري انه لا يدري ..

ماذا تريد ؟
ـ أنا .؟ ما أنا حتى اريد ؟!
يا سيدي ، لا شيء ، لا ادري ،
أفتش عن صديق
حي ، وأين الحي ؟ أبحث عن طريق
عن منفذ لافر من هذا الحريق ..

لقد سيطر عليه شعور التفاهة ، ولن يتأتى له الخلاص منه بسهولة .. سيعمق تجاربه كثيرا قبل النجاة .. لكن عدة رواسب ستظل عالقة بنفسه كما سنرى .. ونظرة الى واقعنا تجعلنا على شبه يقين بأن حـالة الطريد هذه ظلال باهتة لما يعانيه ..

المهزومون جيل عربي عزل عن قضيته في السنوات الاخيرة، ذوو شعور حاد بالواقع .. والطريد كما أسلفنا أنموذج العربي الذي لـم يتلمس طريقه بعد رغم احساسه الرافض لما يحياه .. والرفض يبقـى شعورا ثوريـا قاصرا ما لـم يتوجه الالتزام ويحدد معالم الطريق.. اذ لا يكفي الثورة على الواقع والتنكر لمعطياته ، ما لم نصدر في هذا عن عقيدة بينة المعالم ثورية الفكرة والاسلوب .. وهكذا كان رفضيا غريبا بيــن الاخرين .. ذاتا متلجلجة ، مشلولة الاطراف :

ولكن كنت بينكم
غريبـا ، ضائعـا عنكم وعـن ذاتي
أراكم في الضحى موتى
وما أنتم بأموات
وتحت الليل أبطالا
ولكن دون أصوات
فأبصقكم واغرق في خيالاتي .. «٨»

ويتمطى شعوره بالغربة داخل نفسه حتى درجة النواح فيئن :

أتصفح الالاف من هذا الجراد المستطير
لا عين ترمقني بحقد أو حنان
لا كف توقظني ، تمد لي التحية ، لا لسان

«٦» الفنان والتماثيل
«٧» أسطورة الضفدع والثور .
«٨» هروب أو أشباح الهزيمة

لا نغر يبسم من صميم القلب لي .. «٩»

هزمته الظروف المحيطة به ففرق في الاحلام .. والرؤيا احـدى سمات الديوان البارزة ، أو بعبارة أخرى الهروب ديدن الطريد المسحوق .. انه عنيف بتألمه ، مرير الصراخ :

وقلبي لم يتح لي جرحه يوما لتحريره
وددت لو أن ما فيه من الذكرى
تمـوت فدى هنيهات مـن الاتـي ..

وأية هنيهات يعني ؟. ان كانت امتدادا لمعطيات واقعه فالى الشيطان رؤياه .. لقد عاش فوق دفة وسط البحر تتقاذفه الامواج ، قلقا لا قدرة له على توجيهها .. اذن كان لزاما عليه أن يقول :

تموت فدى هنيها من الاتي
كما أهوى ، كما أختار .. أحياها .. «١٠»

أمانيه تلف بالاشواك ، والقبور الدكناء حيث اعـتاد ان يلهو في حديقة الحب .. ولكن هل يبقى حيث هو .؟ هنا كان الطريد عند علي كنعان متسائلا ملحا في هروبية واضحة نحو الاحلام ، فهـو يبحث عـن الغريب المجهول عن « منفذ من الحريق » دون اتخاذ اية خطوة فعلية.. ولعل هذا راجع كما المعنا الى الاعتقاد بلا جدوى العمل ، والركون الى هذا الرأي .. فكان صراخه ومحاولاته أنين ناي فوق كتف الـسـوادي لا يلبث ان يضيع صداه ،وفي الجو تحلق طائرة مزعجة الهدير ، والشلال ينصب بعنف ، والعازف يعي كل هذه الاشياء مذهولا ..

ثم أخذ الطريد يجمع معطيات الحاضر بواعيته صورا فوتوغرافيـة تئن على شفتيه .. كان حزينا بهدوء، والحزن هو الخيط اللامرئي الذي ينتظم قصائد الديوان .

في هذه المرحلة يتابع الطريد التقاط الصور .. الريفي في قريته وفي المدينة ، معايشا تجربة أزمة روحية يعيشها بدوي «انسام البادية» فينقلها الينا بصور وديعة بما فيها من انفعالات واحاسيس.. لكن القروي أكثر ما يستأثر باهتمامه فيصور الحاصدين .. الكتل الباحثة عن رغيف يابس تغمسه بحبات العرق وبما علق على المناجل من قطرات دم مستباح:

وعلى الرصيف
صور مشوهـــة حزينـه
كتل من اللحم الطري .. تعيش تحلم بالرغيف ..

ولكن من هذه الكتل مأساة تحياها ، ونوعية من الحياة كان لا بـد من الجهاد ضمن اطرها .. الاب وقد عدت عليه السنون والام التي تركت أبناءها سعيا وراء الرغيف ، والصبية السمراء المشلوحة في أزقتنا تحلم بالعريس وجواد الحلم الاشهب ..

كل هذه صور تلتقطها واعيته ، وبداية اهتمامه بمشاكل الاخريـن انطلاقة نحو الثورة والالتزام العقائدي .. ان من يتحسس الام الرفـاق ويملك القدرة على مشاركتهم وجدانيا عواطفهم لهو الطليعة الجماهيرية بنظر الثوريين فيناديهم بمحبة :

يا أصدقاء
هبوا فقد أزف المساء
ليل المدينة طيب يا اخوتي
يندى ويفتح ساعديه ، رأفة للاشقياء
حتى سماء الليل في عليائها ، حتى السماء
بدموعها الازلية المتجمدة
ما بين اهداب الدجى .

غير أن مرحلته هذه تختلط بالمرحلة السديمية .. ولا يزال في نفسه نزوع قوي نحوها ، او رسوبات لا يجد الى الفكاك منها سبيلا ، والقـوى الخارجية التي كان يتصور انها تسحقه ما تزال وفية لعهودها ، فكيـف يرى السماء صديقا عطوفا على الابرياء .؟ انها لحظة لا ينسى ان يقول بعـدها :

«٩» الشبح
«١٠» هروب

لكنها سرعان ما تنسى اذا عاد الصباح
فتذوب أدمعها ويرشفها الضياء
وتمل غبرتها العيون المجهدة .. «١١»

انه يحمل صليبا فرض عليه ، ومشاركته الوجدانية لآلام الاخرين لا تنقذه من سد يمبته ، والاعتقاد بانه تافه لا جدوى منه .. وخلال تجاربه هذه وهو يستقريء ما يحيط به لا يتخلص منها .. بل يحاول ان يسبغ ما بنفسه على الاخرين .. انسان مزور بالاكراه ، ويأسى للاخرين ظانا أنهم مثله مزورون ايضا .. فيصيح في يأس :

يا إخوتي
لا تنفروا من رؤيتي
أنا مثلكم .. شيء بلا معنى صريح
وجهي بلا هدف ، وايماني جريح
لا رب لي
لا شغل ، لا مأوى ، ولاحتى ضريح.

حتى الرب ذبحه على هيكل رفضه ابان مرحلته تلك .. الرب القاسي الذي لم ينقذ القطعان العديدة من الصبايا والشباب ، وعبر نداءاته في وقفته التأملية قال انه يبحث عن صديق حي .. عن منقذ ، وتلمس اليه السبل .. كان انسانا تسيره الاهداف ، يعيش في دوامة .. على أرضنا تدور احداث خطيرة ، وهذه الاحداث تؤثر عليه لاشعوريا .. ما دام يؤمن بالاخلاص الشعري والتجربة الحية .. والمعاناة ايقاع الحس الصادق عندما نحاول وعي ذواتنا .. وقد كانت وما تزال نقطة البدءالثورية في حياة الجيل ، وثم مذاهب شتى تحصر المعاناة طي أطر مثلجة .. ولكن مدارها والمحور الذي يستقطب جميع أبعادها لا يعدو الحس الصادق ، والمشاركة الوجدانية للمحيطين به .. انها بعبارة مختصرة تجربة لا تقبل الزيف ..

حاول خلال سديميته ان يبحث عن طرق اخرى كان أولها تحسس الام الاخرين ، ولكن الاخلاص جعله يتخطى مرحلته هذه ويغذ السير لتصعيدها .. الرفض شعور ثوري قاصر ما لم يتوجه الالتزام العقائدي، والشاعر ملتزم ما دام لديه الحس الصادق المتجاوب مع معطيات الاحداث، فيصعد انفعاله الاني المباشر الى ازمة تملك عليه حواسه فلا يجد مندوحة من اظهارها بالشكل الفني الذي يروقه .. وطريق هذا امعان النظر ، تلمس الاشياء عن قرب .. المعاناة الحقيقية للحادث فيحياه بكليته ، بكل ذرة احساس وانتفاضة عصب .. وهل أحلى وأصدق من معاناة الشاعر وقد راح يتصور ان في نفسه تتمثل الام رجال الانسانية على مر العصور ؟! لقد عبر مع موسى اليم وذاق اهوال الصحراء ، وفي جبينه ندوب لم تمح منذ صلب المسيح الى اخر ما هنالك من عظام كانوا للبشرية قبس خير وبلسم عزاء .. لنستمع اليه :

وبجوف الحوت قاسيت الدجى ، ذقت الهوان
مثلوا بي ، واشتفوا يوم حنين
وطوت باقي رفاتي كربلاء
قبل ان اسطيع دفع السيف عن صدر الحسين
ومسامير الصليب
لم تزل اثارها في جبهتي والمعصمين .. «١٢»

وتتخذ المعاناة اداة للتعبير عند الشاعر الرمز .. وأول هذه الرموز القرية ، وهي عند الشاعر تمثل براءته الاولى ، ووجهه البدائي الذي لم يزور ، فلا يمل التغني بهذا الوجه ما سار بين الناس مفتح العين.. منذ البداية كان يتصبى القرية ، ويتطلع اليها دوما بالرغم من رفضه لاجوائها حينذاك حيث يقول :

وكنا نلتقي في مسجد القرية
لنكشف عن نوايانا
هي الاعمال بالنيه

«١١» ظلال الغيوم
«١٢» في ليلة الميلاد

وننذب ربنا في كل يو. خمس مرات

الى ان يقول :

سئمت ، كرهت وطأتها على صدري.

وتجربة الريفي النازح الى المدن الكبيرة لها في شعرنا الحديث ضرب من الانغام الجنائزية ، هي الى وداعة الصوفيين أقرب منها الى أي شيء اخر .. وهنا يلتقي الشاعر بأحمد عبد المعطي حجازي وبدر شاكر السياب . فالحنين الى الريف عند كل منهم جارف لا تقاومه رغبة .. وهذا الحنين عند حجازي نتيجة القلق الذي يشعر به ، وتعبير عن حلمه بالاستقرار كما يقول رجاء النقاش . ولكن في حين رأى طريقة الخلاص في الفن كان علي كنعان أشد ميلا للعمل السياسي في صف واحد مع الجماهير .. فراح يتصور نفسه دائما مع مجموعة هي هو وبالتالي لا يستطيع الا ان يعبر عما تحسه .. ففي « المحنة وصكوك الغفران » « ١٣ » يرفض معطيات واقع كان معرقلا لانطلاقات الجيل الثورية ، وموقفه هذا كان زبدة انفصاله السديمي في البداية .. ثم لا يلبث بعد هذا أن يعلن تضامنه مع الجماهير :

لك مني وعد العروبة يا شعبي متى عسل الكرم
سأسقي النجوم نخب انتصارك
أنا منهم برئت يا أرض شدني الى صدرك الغني الحاني
واقذفي اقذفي بهم في فرارك .

أو يقول :

نحن عدنا من الذرى نهدأ التاريخ طفلا في واحة عربية
نحن يا أم .. نحن أغلى صغارك
فالجماهير والمدى يعربي الجرح والثأر يعربي الاغاني..

وللنفس الحزين الخافت في نفس الشاعر جذور منها ما يمتد الى ماضيه موغلا في أشيائه الذاتية المحضة .. غير ان هذا الجزء لا يقوم

«١٣» قصيدة للشاعر نشرت مؤخرا في «الاداب».

في المكتبات

مع الإمام علي
من خلال «نهج البلاغة»

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي يتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تاليف

خليل الهنداوي

منشورات
دار الاداب

الثمن ٢٥٠ ق.ل

بذاته ، انه منفعل فاقد لفعاليته ولا يقبل الوجود الا من غيره .. وقد كان هذا الوجود الغيري ذو الفعالية الكبرى ، والفوران الملحمي وجـه أمته وما يثقل ضميرها من آلام تنعكس على نفس شاعر يعايش بيئـة كهذه سوء كان عمله انبثاقة وعي ، او مجرد انعكاسات لاشعورية ... فرؤى الماضي دوما تطارد الشاعر .. وللذكرى في نفسه الام يصعب عليه ازدرادها .. ونكبات الامة كانت اكبر مثير لشجونه هذه . فخيبة املها نغم في سيمفونيته الذاتية .. كلنا مضيعون .. والغريب في مذهب الغرباء أخ .. ونكبتنا الكبرى عام ١٩٤٨ كانت وما تزال العنكبـوت اللزج الذي لا يتركنا لاحلامنا برهة حتى يأخذ في الدبيب على أعيننا .. شيء مرعب .. كريه ، لكنه واقع :

الريح في الوادي تولول ، والعنادل
حطت ـ وأين الظل !؟ تشكو للردى مأساتها
« الفجر كان لنا ، وميعاد النسيمات الصديقه
كانت لنا تلك الحديقه
يافا .. وأشرعة يضاحكها المدى
فتئن ذاهلة كأن وراء أنتها العدا
بيضاء أو خضراء أو حمراء خافقة السنا
كانت لنا ، كانت لنا
كانت بما فيها ، وكان لنا
في ظلهـا المعطار اجنحة طليقة « ١٤ » .

كانت لنا تلك الحديقة ولكن : « آه ما أقسى رؤى الماضي ». كل شيء يذكرنا بالمأساة .. والذكريات شجون ما أمر مذاقها .. العنف يجتاحنا ببرود ، والسكاكين تعمل في أجسامنا ولكن ببـرود .. هذه موروثات جيل أفاق من خدر الماضي على ضربات نحاسية ليردد مأخـوذا كنت وكان لي ..

مرة اخرى يعود الى اذهاننا وليم بليك .. التوابيت الحجرية والقبور تملأ حديقة الحب حيث كان يجب ان تكون الزهور والزنابـق البيضاء .. ان في اعماق الشاعر رجلا كئيبا يعلن عن ذاته لدى كـل سانحة .. ولعل في هذا ما يعيدنا الى مرحلة الطريد السديمية ... المأساة تغلفنا .. وخلف هذه الزريبة بصرنا كليل .. غير ان الشاعـر كما نوهنا لم يقف عند هذه المرحلة .. ولو أتيح لوليم بليك ان يرسـم لنا طريق الخلاص لما تعدى قوله البحث عن نبي جديد ، عن بعث يحيـي في نفوسنا الموات .. لقد كنا .. ونحن الان نتصبى بطلا خصب المحيا .. نبوءة تبعث من جديد أو كما قال علي :

أسطورة البطل الذي ضحى ويبعث كالنبوءة من جديد

وعبر هذه الاطلالة على واقعنا العربي يتشعب رمز القرية عنـده ليصبح نموذجا مصغرا لوطنه الكبير ، ويحيا تجربة الامة من خلال القرية ومن خلال هذا النموذج .. ونستطيع بناء على هذه النظرة ان نعيـد النظر في كل ما جاء على لسانه حول القرية . فالجدب والمطر كما حدثنا عنهما محاولة ابداعية استطاعت ان تعمق في نفوسنا الشعور بخصب

«١٤» شمشون من جديد .

مكتبـة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبـوعات العـربية ، وكـذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

التجربة لدى الشاعر ، وتسلمنا الى منطقة الوحي والظلال البدائية في لحظة تعرية الوجوه مما يشوبها للانطلاق مع الشاعر ومواكبته في مهاداته عبر هذه الظلال ..

الجدب يقتل انساننا ، والقرية تشكو .. تبتهل لاله ما زال مـن أبد حسيا في نفوس البسطاء .. لبعث ما فهم يوما الا على انه الخصب المتفتح .. محاصيل مثقلة بالعطاء ونساء حبالى في شهرهن التاسع .. ولعلنا لا نعدو الحقيقة حين نقول ان الدعوة الى الاصالة والبراءة،ومعس الزهور المصطنعة .. بالرجوع الى الحقل حيث الزنابق البيضاء ... حيث الندى الحيي .. حيث قلب الحياة نابض أبدا :

خاطري يهفو الى الحقل :
فراش الشمس ، حمام النجوم الساهره
ومراح الاخيلة ..

الدعوة الى هذه البراءة محراب الشاعر الذي لا يفتأ يحرق فـي مجامره بخوره .. وقد استقطبت هذه التجربـة كثيرا من شعرائنا المحدثين .. غير ان احدا منهم لم يرتفع بها الى المستوى المأسـاوي الحضاري مثل بدر شاكر السياب الذي كانت قصيدته « مدينة بلا مطر » أحلى من دفقة المطر وهي توشوش ذابل الازهار :

وفي أبد من الاصغاء بين الرعد والرعد
سمعنا : لا حفيف النخل تحت العارض السحاح
أو ما وشوشته الريح حيث ابتلت الادواح ،
ولكن خفقة الاقدام والايدي
وكركرة و « آه » صغيرة قبضت بيمناها
على قمر يرفرف كالفراشة ، أو على نجمه ..
على هبة من الغيمة ،
على رعشات ماء ، قطرة همست بها نسمه
لنعلم ان بابل سوف تغسل من خطاياها .. « ١٥ »

* * *

بعد استعراضنا لما توحي به رموز الشاعر لا بد لنا من تسجيل ميزة له تستحق الاعجاب ، وهي انه لا يقف عند حدود الرمز الاول وانما يكسبه الحياة والحركة عن طريق ربطه اياه بتجارب ذاتية تعطيه ثقـل الوجود وكثافته .. وهذا ما جعلنا نحس اننا نقول بقلوبنا ما كتبـه الشاعر في « أغنية العودة » وشمشون من جديد والفار والغراب..الخ بعبارة اخرى لم نحس التصنع فيما يكتبه . ولعله وهو يكتب كان يتطلع الى قول جون كيتس : « خير للشعر الا يوجد ان لم يأت طبيعيا كقدوم الاوراق الى الاشجار » . فالرمز مقضي عليه بالموت ما دام احد المعميات، بورجوازيا له أنفـة المنفوخين ، وعظمة الجهلاء .. الرمز بهذا المعنى انسان بلا قلب ، ولا اخصب في تجربه الشعر من رمز بقلب . فلقاء الحبيبة انهمار المطر ، وهجرها جفاف .

أزمة التكوين الحادة ، واصطراعنا مع قوى ندب معها في الشارع مضيعين لحظـة جفاف .. لحظـة عقم .. وهكذا رحنا نحس بالبساطة التي يتكلم بها الشاعر ، دون اللجوء الى الانفعالات الهوجاء ما عـدا بعض القصائد .. انه هادىء وديع يتحدث الينا همسا .. وما أعمـق الهمسات في أجواء يسيطر عليها ارهاب من نوع ما .. سواء كان ارهابا كونيا من قبل الله يمنع انهمار المطر او ارهابا أسود من أي نوع يشعر الانسان معه انه فأر .. جرذ حقير شرش في أدمغة الصمت ، وأزقـة القمم المتفسخة :

ها أنا ما زلت فأرا جائعا يا أصدقاء
لاطيا تحت الدجى القاسي
وفي جـوف الدهاليـز اللعينـه
أتلوى ، أقرض العتمة
أمتاح الاسى ، أدمي سكونه
علني أحظى بسرداب الى بيت مؤونة .

«١٥» السياب : أنشودة المطر ص ١٧٧ .

يحق لنا ان نتساءل بعد هذه الرحلة مع افكار الشاعر وصوره عن مدى توفيقه في عرض هذه الافكار .. وأبادر الى القول انه كان موفقا اغلب الاحيان ، واستطاع ان يعمق في نفوسنا الايمان بأسلوبه الشعري، وشخصيته المتميزة في طريقة التعبير .. ولعل في هذا أقوى دليل على صدق تجربته واخلاصه الشعري .. غير ان الشاعر معجب بغنائيته ، وكلماته الرومنسية . ولعله في هذا أشد اعجابا بغنائه من أم كلثوم بصوتها وتكرارها الممل .. فكما لا ترحم أحدا من نغم يكرر حتى يفقد محتواه يطيل الشاعر حتى يجعلنا نتمنى انتهاء القصيدة .. ان التركيز الفني اشد ما يحتاج اليه الشاعر والافتقار اليه عاد على قصائده بمساوىء شتى .. انه يلغي القارىء في اسهابه احيانا وبالتالي يحرمه متعة البحث، ومعاودة النظر في القصيدة ..وقد انعكست الآثار السيئة للاسهاب على قصيدته الجيدة « هروب » فأفقدتها كثيرا من جمالياتها خاصة تلك النهاية القلقة عن تدمر وماضيها ، حتى انه ليصح ان نقول لقد جاءت النهاية قصيدة قائمة بذاتها ، ولو حذفت لما ازدادت القصيدة الا جودة ، وكثيرا ما أدى به الاسهاب الى النثرية السمجة مما حال بين بعض قصائده وبين نفوس القراء . وحبذا لو سعى الشاعر الى التخلص من هذا العيب الشعري ، وعمل جاهدا على تدعيم تماسك قصيدته ، وتكامل وحدتها العضوية ..

ثمة ملاحظة اخرى وهي ان الشاعر كان منسافا في بعض الاحيان لترديد الفاظ لا معنى لها .

لقد انتشرت موجة الغثيان بعد ان قذف بها وجوديو فرنسا ، وعلقنا بأذيالها علنا ندخل محراب الفن عن طريقها ، حتى باتت سمجة لا تثير في النفس شيئا لكثرة ما ابتذلت في الشعر والقصة . وكنا نربأ بالشاعر أن يتعلق هو الاخر بأذيالها في قصيدة مطولة هي « أسطورة الضفدع والثور » . بل ان هذه الكلمات تكاد تفقد كل ما في الشعر من جمالية :

اتركيني
فرفت نفسي ، اشمأزت
عفن الكهف وفيء الاقبية
افتحي الباب : أضعت الخاتم السحري عند القنطرة
ونسيت الاحجية .

ناهيك بما في هذه الالفاظ من تقريرية مستقبحة . ويبدو ان الشاعر يولي القصائد الغنائية المحضة اهتماما زائدا فافرد لها في الديوان قسما خاصا .. وهي تمتاز بصورة عامة بعذوبة كلماتها وسلاسة لحنها.

ولكن !. هل لي أن أقول للاخ الشاعر ان هذا الضرب من الانغام لا مستقبل له ، وان الرومانسية التي أفناها شعراؤنا عجنا وتكرارا حتى بشمت منها نفوسنا سينكرها غد الشاعر .. ان قارىء الديوان لا بد ذاكر ردحا من الزمن الفأر والغراب واغنية العودة وشمشون من جديد وأنسام البادية .. لكنه لن يذكر « المسافر والسراب ، وأغانيك الجبلية » رغم انه قد يسر لدى قراءتها وتدخل على نفسه المتعة !!

* * *

تعقيب :

كتبت هذه الدراسة منذ عدة اشهر ظهر خلالها عدة قصائد للشاعر « كميلاد نسر وكلمات في اخر الليل » . وينبغي لي ان اشير الى انه قد تخلص من معظم ما كان يعوق انطلاقته الشعرية . فنحن في هاتين القصيدتين الرائعتين أمام قدرة فائقة على التركيز الفني وخلق الوحدة العضوية للقصيدة ، خاصة في « كلمات في اخر الليل » بمقاطعها الثلاثة ، ولا يفض من قيمتها اقتراح الدكتور احمد كمال زكي بأن يسقط منها المقطع الاخير ، واعتقد انه لو تبصر في القصيدة جيدا لما تورط في مثل هذا الرأي.. وقد يكون لنا عودة نحلل فيها رموز القصيدة الخصبة..

جامعة القاهرة
أحمد اسكندر أحمد

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تأليف مرغريت دورا
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندللو
ترجمة جورج صرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت